الجانب النفسي

في

فلسفة الإمام الغزالي .

أ.د. أحمد عبد الحميد الشاعر .

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة بالكلية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .

هذا البحث جهد متواضع يعجز عن الإحاطة الشاملة بمختلف المباحث النفسية الدقيقة لدى حجة الإسلام الغزالي .

ومن ثم حسبه أن يركز على أمرين هما القاعدة والمنطلق ؛ لما وراءهما من مباحث لدى الغزالي بخاصة وعلماء النفس بعامة :-

الأمر الأول : موضوع الدراسات النفسية ومنهج البحث فيها .

والأمر الثاني : الطبيعة الإنسانية وما يكتنفها من غرائز ودوافع .

نعرض لكل هذا في دراسة نقدية مقارنة بالدراسات النفسية الحديثة لتكون الرؤية أوضح والحكم أقرب إلى الصواب .

وبالله التوفيق .

أ٠د٠أحمد عبد الحميد الشاعر .

مكانة البحث النفسي في فلسفة حجة الإسلام.

إن الجانب النفسي في فكر حجة الإسلام الإمام الغزالي يمثل الأرض الخصبة التي انطلق منها في تقعيده لفلسفة إنسانية راقية ، تستهدف بناء الإنسان في ذاته ، وتدعيم كيان المجتمع في بنائه .

ومن الملاحظ أن حجة الإسلام قد كتب مباحثه النفسية عن تجربة مريرة عاشها في عصر تجاذبته المذاهب المتناحرة ، والتيارات الفكرية المتصارعة .

ولقد سجل نفسه تلك التجربة في سيرته الذاتية " المنقذ من الضلال " حيث يقول :

" لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ ــ قبل بلوغ العشرين ــ إلى الآن ــ وقد أناف السن على الخمسين ــ أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكله ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ومستتر ومبتدع .

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته .

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته .

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته .

ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غايه كلامه ومجادلاته .

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته .

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقة "[١]

إن هذا النص ــ وغيره كثير ــ يُعبر عن الحال النفسية الصادقة ، والعقلية النافذة ، وتلك الروح الناقدة التي فطر عليها أمامنا الغزالي ، ومن ثم كانت انطلاقته ــ في نهم وشغف ــ إلى إشباع حاجته ، والسعي الدؤوب وراء طلبته .

وليس من العجب إذن أن نجد أنفسنا أمام شخصية فلسفية عملاقة ، ومتعددة الجوانب ولا تزال ــ رغم القرون ــ مجالاً للدراسة والبحث والاستقصاء ، فقد كان ﷺ ــ ولا يزال ــ متكلماً من المتكلمين ، فيلسوفاً من الفلاسفة ، فقيهاً مع الفقهاء ، أصولياً مع الأصوليين ، صوفياً مع الصوفية ، وفوق ذلك كله عالم نفسي دقيق ، عبَّد الطريق ، وأرسى الدعائم الأساسية لعلم نفسي إسلامي رصين ، يستمد أصوله من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

إن هذه الحقيقة تتكشف لنا بوضوح في مؤلفات حجة الإسلام ، وبخاصة موسوعته القيمة " **إحياء علوم الدين** " .

إن نظرة فاحصة على مقدمة هذا الكتاب تؤكد تلك الحقيقة ، فهو قد رتبه على أربعة أرباع ، على حد تعبيره :ـ

ربع العبادات .

ربع العادات .

ربع المهلكات .

ربع المنجيات .

---

(١) المنقذ من الضلال ١٢٥ /١٢٦ ط١ تقديم الدكتور عبد الحليم محمود .

وفي حديثه عن الأحكام الشرعية ترى الرجل ليس مجرد فقيه يبين لنا الحلال من الحرام فحسب ، ولكنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حيث يكشف لنا ــ في دقة ــ عن الآثار النفسية المترتبة على تلك الأحكام الشرعية ، ومن ثم يعنون لموضوعات هكذا :-

كتاب أسرار الطهارة ــ كتاب أسرار الصلاة ــ كتاب أسرار الصيام ــ كتاب أسرار الزكاة ــ كتاب أسرار الحج .

وعلى سبيل المثال يقول في مقدمته لكتاب أسرار الطهارة في الجزء الأول من الإحياء : -

" إن أهم الأمور تطهير السرائر ، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ : " **الطهور نصف الإيمان** " عمارة الظاهر بالتنظيف بإضافة الماء وإلقائه ، وتخريب الباطن بإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار ، هيهات هيهات .

والطهارة لها أربع مراتب :-

المرتبة الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

المرتبة الثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة ، والرذائل الممقوته .

المرتبة الرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهى طهارة الأنبياء " صلوات الله عليهم والصديقين " أ.هـ.

وإذا ما جئنا إلى الربعين : الثالث والرابع كان اهتمام حجة الإسلام واضحاً ومباشراً ، بل إنه أدخل في الصحة النفسية ، والطب النفسي

بشقيه ــ الوقائي والعلاجي ــ حيث التركيز على ما ينتاب الإنسان من أمراض نفسية وخلقية ، وتحديد علاجاتها الناجحة ، وبيان طرق الوقاية منها كذلك.

ولذلك جاء الربع الثالث بعنوان" المهلكات" وفي مقدمة الكتاب يقول عنه:

" وأما ربع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القران بإماطته وتزكية النفس عنه ، وتطهير القلب منه ، وأذكر فيه من كل تلك الأخلاق حدّه ، وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها تترتب ، ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص ، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار " أ .هـ.

أما الربع الرابع فقد جاء بعنوان " **المنجيات** " وفيه يقول :-

" أما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خُلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وأذكر فيه كل خصلة وحدّها ، وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي فيها يرغب،مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل" أ.هـ

بعد كل هذا يجد الباحث نفسه أمام كم هائل من المباحث النفسية الدقيقة لدى حجة الإسلام الغزالي ، وإن هذا البحث المتواضع ليعجز عن الإحاطة الشاملة بمختلف جوانبها ، وأطرافها ، ومن ثم حسبه أن يضع بين يدي القارئ صورة مركزة لرؤية الإمام الغزالي في أمرين :-

الأمر الأول : موضوع الدراسات النفسية ، ومنهج البحث فيها .

الأمر الثاني : الطبيعة الإنسانية وما يكتنفها من غرائز ودوافع .

وهذان الأمران ــ في نظرنا ــ هما المنطلق والقاعدة لما وراء ذلك من مباحث لدى علماء النفس ، ومن ثم نحاول ــ بعون الله تعالى ــ أن نقدم الرؤية الغزالية فيهما من خلال ما سجله الإمام نفسه ، في دراسة نقدية مقارنة بما تقوم عليه الدراسات النفسية الحديثة ، لتكون الرؤية أوضح ، والحكم أقرب إلى الصواب

أولاً : الدراسات النفسية : موضوعها ومنهج البحث فيها .

في هذا الموضوع نؤكد ما تقرر لدينا من أن هناك مفارقة عميقة ودقيقة بين حجة الإسلام وعلماء النفس المحدثين . وهذه المفارقة جديرة بالتقدير والاعتبار ، وترجع أهميتها إلى أنها مفارقة في الموضوع والمنهج معاً .

أما المفارقة في الموضوع : فتتضح في أن حجة الإسلام ينظر إلى الإنسان باعتباره وحدة كلية مجالاً للدراسة والبحث وهذه الوحدة تشتمل على جوانب الإنسان المختلفة ، المادية والروحية والعقلية والإدارية والوجدانية .

وكل هذه الجوانب تتفاعل مع بعضها البعض سلباً وإيجاباً ، وسنده في ذلك ــ كما هو شأنه دائماً ــ شواهد الشرع ودلائل العقل ، ومن ذلك قوله ﷻ في سورة الإنسان :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً . ﴾ الإنسان ٢-٣.

أما موضوع الدراسات النفسية عند علماء النفس المحدثين فإنه " **السلوك** " ثم يرى هؤلاء " أن علم النفس هو العلم الذي يدرس السلوك الإنساني دراسة علمية بهدف الوصول للقوانين التي تحكمه "[٢]

([٢]) الإنسان وعلم النفس ــ د. عبد الستار إبراهيم ــ ص٣١ .

ويترتب على ذلك إن الدراسات النفسية الحديثة تسقط من اعتبارها البحث فيما وراء ذلك من الجانب الروحي في الإنسان ، وذلك على عكس ما يقرره ويعتقده حجة الإسلام .

إن هذه المقارنة تزداد وضوحاً ببيان المفارقة في المنهج أيضاً ، حيث تكون الفجوة أوسع وأخطر .

هنا نجد حجة الإسلام ينتهج منهج التأمل الذاتي ، والملاحظة الخارجية الدقيقة ، ومن قبل ذلك يأخذ بمنهج الله تعالى في الكشف عن ذات الإنسان وواقعة الباطني، وسلوكه الخارجي ، وتوصيف أنماط شخصيته المختلفة.

بينما يلجأ العلماء المحدثون إلى " **المنهج التجريبي** " ، وهو منهج البحث المتبع في العلوم الطبيعية ، وهنا تكون الخطورة في محاولة إخضاع الإنسان لهذا المنهج ودراسته من خلاله ، وكأنه مادة من المواد التي نتعامل معها داخل المعمل ، ونخضعها للتجربة المعملية .

وهذا واحد من العلماء المتخصصين في علم النفس يعقب على هذا الموضوع ، إنه **الدكتور محمد عثمان نجاتي** ، في كتابه " **القران وعلم النفس** " حيث يقول : " إن علماء النفس المحدثين بتبنيهم مناهج البحث في العلوم الطبيعية ، وقد حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية ، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي ، وبذلك أبعدوا النفس ذاتها عن دراساتهم ، لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته ، وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته

وقياسه ، وقد نادى بعضهم بتغيير اسم علم النفس وتسميته " **علم السلوك** " (٣)

ونقول : إن هذا هو ما فعله **شيخ الإسلام ابن تيمية** حيث عنون لأحد مؤلفاته هكذا " **علم السلوك** " وهو المجلد رقم (١٠) في مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية .

وعن الآثار المترتبة على ذلك الفرع من الدراسة ، ومن خلال تلك المنهجية التجريبية ، **يقول الدكتور نجاتي :**

" وكان هناك من نتيجة هذا الاتجاه في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في بحوث علم النفس ، أن سادت في دراساته وجهة النظر المادية التي ترجع جميع الظواهر إلى العمليات الفسيولوجية ، والتي تنظر إلى الإنسان كنظرتهم إلى الحيوان ، بل إنهم جعلوا من دراساتهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعي لفهم سلوك الإنسان مغفلين في كثير من الأحيان الاختلاف الكبير في طبيعة تكوين الإنسان الذي يتميز عن الحيوان بالروح ، وهو أمر يغفلونه في دراساتهم إغفالا يكاد تاما " (٤)

يتضح من ذلك أن الدراسات النفسية الحديثة تنظر إلى الإنسان نظرة جزئية وتعجز عن النظرة الشمولية لفهمه فهما صحيحا ، ومن ثم يصبح من الطبيعي أن يستعصي على هؤلاء كثير من العناصر الجوهرية في الإنسان .

---

(٣) القرآن وعلم النفس ــ د. محمد عثمان نجاتي ــ ص١٩-٢٠ .

(٤) القرآن وعلم النفس ــ د. محمد عثمان نجاتي ــ ص٢٠ .

ومن الواضح أن سلوك الإنسان يعكس ما في ذاته الباطنة من دوافع وغرائز ، ولا يعبر عن بعضها دون البعض ، وعلى ذلك يكون فهم السلوك الإنساني مقاسا إلى السلوك الحيواني فهما خاطئا ، وحصر له في دوافع معينه ، وإلغاء لما عدا ذلك من دوافع دون مبرر اللهم إلا إن هذه الدوافع الأخرى لا يمكن إخضاعها للمنهج التجريبي ، ومن ثم لا يعترف بها علماء النفس المحدثون ، شأنهم في ذلك شأن المذاهب المادية جمعيها. وقد أدرك هذه الحقيقة نفر غير قليل من علماء النفس المحدثين فحاولوا تدارك هذا القصور ، وفي هذا يقول **الدكتور محمد عثمان نجاتي** :

" وقد فطن في السنوات الأخيرة عدد غير قليل من علماء النفس إلى أهمية دراسة الناحية الروحية من الإنسان ، وبدأت محاولات لدراسة بعض الظواهر الروحية مثل " **التخاطر** " و " **الاستشفاف** " ، غير أن هذه المحاولات لا تزال في بدايتها ولم تصل بعد إلى نتائج دقيقة يمكن ضمها باطمئنان إلى مجموعة معلوماتنا الدقيقة عن الإنسان " (*)

ونحن من جانبنا نرى ــ بالإضافة إلى هذا ــ أن هناك آثارا واضحة تؤكد خطأ تلك الدراسات من خلال المنهج التجريبي ، ومنها على سبيل المثال :

أولا : إسقاط العنصر الروحي في الإنسان ، وذلك واضح في مبحث الغرائز والدوافع ، حيث أن الحديث عنها يدور حول الغرائز الطبيعية والدوافع الفسيولوجية ، والدوافع النفسية المنعكسة على الإنسان من تأثير البيئة .

(*) المرجع السابق ص٢١ .

ولهذا يسقط من الاعتبار تلك الغريزة الفطرية التي تكمن في النفس الإنسانية نحو مصدر وجودها " **الله جل جلاله** " .

تلك هي غريزة التدين التي فطر عليها الإنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ **فأقم وجهك للد ين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الد ين القيِ م ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ الروم ٣٠

وما يطرأ على تلك الفطرة من تلوث فيها ، أو تحول عنها ، فإنه لا يعني عدم وجودها ، بل يرجع إلى عوامل البيئة والتربية ، وأثرهما على الإنسان ، وفي ذلك ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**)

" **ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾** . (٦)

ثانيا : في مبحث العواطف والانفعالات يدور الحديث عن " **الحب** " في جوانبه المختلفة ، حب الذات ، حب الوالدين والأسرة ، حب الوطن ، حب الآخرين ويسقط من الاعتبار الحديث عن حب الله تعالى ، وحب الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثالثا : في الغرائز عند مدرسة التحليل النفسي اعتبرت الغريزة الجنسية هي المحرك الأول لجميع الأنشطة الإنسانية من المهد إلى اللحد .

وهو أمر يتنافى وطبيعة الإنسان التي تختلف عن طبيعة الحيوان .

---

(٦) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة ﷺ والطبراني في الكبير وأبو يعلى في مسنده عن الأسود بن سريع ﷺ /صحيح الجامع الصغير ٥٧٨٤و٤٥٥٩، وانظر رقم ٥٥٧١ .

رابعا : في مدرسة التحليل النفسي ــ أيضا ــ اعتبرت الأحلام تعبيرا عن الكبت الذي يعاني منه الفرد نتيجة الصراع بينه وبين المجتمع الذي يحول بينه وبين تحقيق رغباته ، وإشباع حاجاته ، فهي إذا أعراض لحالة مرضية نفسية .

ومن هنا لا تعترف تلك المدرسة بما يسمى بالأحلام التنبؤية : " أي الرؤيا الصالحة " في عرفنا الإسلامي ، وقد عالجها الإمام الغزالي معالجة شيقة .

ومن الطبيعي ألا تعترف تلك المدرسة بهذا النوع من الأحلام لأنه انفتاح للنفس على الملأ الأعلى من خلال الجانب الروحي المميز في الإنسان .

ومدرسة التحليل النفسي ترفض الاعتراف بهذا الجانب رفضا مطلقا .

وقد عرض **الأستاذ محمد قطب** في كتابه " **الإنسان بين المادية والإسلام**" لهذا الموضوع فقال :-

" وقد كان منطقيا من هذه المادية المتغلغلة في كيان **فرويد** وفي المجتمع المحيط به أن ينكر جميع المعنويات ، فهو يذهب إلى أبعد مدى في نظريته في تفسير الأحلام ، فينكر كل حقيقة خارجة عن نطاق الأرض ، بل عن نطاق الإنسان ذاته في حيزه المحدود ، فهو ينفي نفيا باتا ما نسميه " الأحلام التنبؤية " ؛ لأنها قائمة على أساس الروح وعلى أساس صله هذه الروح بالعالم الأكبر ، وبالغيب المجهول ، وتلك كلها " خرافة " يؤمن بها السذج البسطاء ، ولا تليق بكرامة العلماء .

فلا جرم إذ يقول عن الطريقة الرمزية في تفسير الأحلام أنها طريقة "خرافية " (٧)

(٧) الإنسان بين المادية والإسلام ــ محمد قطب ص ٣٦ .

خامسا : يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في تقديمه لكتاب " الدراسات النفسية عند المسلمين " :

" ألغت كثير من مدارس علم النفس " **الشعور** " من مجال دراستها ؛ لأن مثل هذا البحث لا يتفق مع الأساليب العلمية ، ولكن هذا الإلغاء لا يعني ــ بحال ما ــ أن الشعور لا وجود له ، وأن الإنسان لا يحس بحريته واختيار ما يؤثره ، وإلا كان الإنسان لا يعدو أن يكون قطعة من الحجر ، أو كريشة في مهب الرياح ، لا حول له ولا قوة ، وليس له سلطان على نفسه ، ولا يستطيع أن يسمو إلى آفاق عليا ومنها الآفاق الروحية الدينية. ومن أجل ذلك لا تزال بعض المدارس في علم النفس الحديث تفسح المجال :ـ

أولا : للتأمل الذاتي ، وهو منهج لا يتفق مع مناهج العلم الطبيعي .

وثانيا : لدراسة ظواهر قد تتعارض أو على الأقل تقع في دائرة تختلف عن دائرة العلم وهى الظواهر الدينية " (٨)

وعلى ضوء هذا كله يتضح لنا أن حجة الإسلام يختلف اختلافا بينا وجوهريا ، مع المدارس النفسية الحديثة ، وأن ما أسقطته تلك المدارس من الاعتبار يؤكد وجوده الإمام الغزالي ، وسنده في ذلك التأمل الباطني والوحي الإلهي ، ذلك المنهج المعصوم الذي لا تعترف به المدارس النفسية الحديثة رغم أنها تعيش عصر التخصص العلمي ، فمن ذلك المتخصص في الكشف عن ذات الإنسان ، وحقيقته وطبيعة تكوينه غير الله سبحانه وتعالى ؟ ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ الأعراف٥٤ . ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ الملك١٤ .

---

(٨) الدراسات النفسية عند المسلمين ــ د. عبد الكريم العثماني ص ٤ .

الطبيعة الإنسانية .

إن التعرف على طبيعة الإنسان الباطنة ، وما تنطوي عليه من غرائز ودوافع أمر جد خطير في الدراسات النفسية ، وكل المحاولات التي تبذل لدراسة السلوك الإنساني ، إنما تستهدف الكشف عن تلك الطبيعة وما يكتنفها من أسرار ، ورغم تلك المحاولات لا تزال هناك مغاليق يستعصي على الإنسان انفتاحها ، اللهم إلا بمدد من الله تعالى ، وفهم صحيح لكتابه ﷻ وسنه نبيه ﷺ .

وقد فتح الله على حجة الإسلام فانكشف له ما لم ينكشف لغيره من الفلاسفة ، فقدم صورة حية ومفصلة لهذا الموضوع ، ونحن بدورنا نحاول في هذه الصفحات أن نعكس صورة موجزة تتناسب وطبيعة هذا البحث ، ونرجو أن تكون وافية ومحققة للغرض المراد منها .

ومن هنا نقول :

لقد عالج الإمام الغزالي هذا الموضوع بطريقته الخاصة في كتاب " **شرح عجائب القلب** " في موسوعته " **الإحياء** " ، بالإضافة إلى ما تناثر في كتبه الأخرى ، مثل " **معارج القدس** " و " **ميزان العمل** " و " **المنقذ من الضلال** " إلخ .. ولكنه في " **الإحياء** " أشمل وأوفي .

وقد انطلق الغزالي ــ في معالجته هذه ــ بتحديد المفاهيم لألفاظ تعبر عن حقائق جوهرية في ذات الإنسان ، وبها يكون الإنسان إنسانا ، هذه الألفاظ هي : القلب والروح والنفس والعقل .

وخلاصة هذه المفاهيم ، كما جاء في " الأحياء " تتبلور فيما يأتي :

أولا : القلب : ويطلق على معنيين هما :-

الأول : اللحم الصنوبري الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو بهذا المعنى يتعلق به غرض الأطباء .

الثاني : اللطيفة الربانية الروحانية ، ولها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وهى حقيقة الإنسان ، والمدرك العالم العارف المخاطب المعاتب والمطالب .

ثانيا : الروح : ويطلق أيضا على معنيين :-

الأول : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني .

الثاني : اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان أحد معاني القلب ، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿ **قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .** ﴾ الإسراء ٨٥.

وهو أمر عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

ثالثا : النفس : ويراد بها معنيان كذلك :-

الأول : المعنى الجامع لقوتي الغضب والشهوة في الإنسان وهذا هو الاستعمال الغالب على أهل التصوف .

الثاني:اللطيفة التي سبق ذكرها في القلب، وهى الإنسان بالحقيقة ، وهى توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإن سكنت وزايلها الاضطراب سميت " **النفس المطمئنة** " وإذا لم يتم سكونها وصارت مدافعة للنفس الشهوانية سميت " **النفس اللوامة** " وإن تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ، ودواعي الشيطان سميت " **أمارة بالسوء** " .

رابعا العقل : ويطلق على معنيين هما :-

الأول : العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الـــذي محلـــه القلب .

الثاني : هو المدرك للعلوم فيكون هو القلب ، أي تلك اللطيفة الربانية .

ويخلص الغزالي من ذلك إلى أن هذه الألفاظ الأربعة مترادفة ، وتطلـــق على معنى واحد ، يقول :" فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس ، وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنســـان ، والألفـــاظ الأربعة تتوارد عليها " .

وفي كتاب " **معارج القدس في معرفة مدارج النفس** " يقول في نهاية هذا الموضوع : " ونحن حيث أطلقنا في هذا الكتاب لفظ : النفـــس والـــروح والقلب والعقل فنريد به النفس الإنسانية التي هي محل المعقولات " أ.هـــ وهذه هي المفاهيم التي يراها حجة الإسلام ، وقد نتفق أو نختلـــف معـــه حولها ، وحسبه أن يعبد الطريق أمام الباحثين لينفذوا من خلاله إلى فـــهم الطبيعة الإنسانية .

وما دام جوهر الإنسان يتركز في القلب منه ، فإن الإمام الغزالي يرى أن هناك جنودا تخدم هذا القلب ، وتنحصر في ثلاثة عناصر :-

(١) الإرادة : وهي صفة باعثة إما إلى جانب النافع الموافق كالشهوة ، وإما إلى دفع الضار المنافي كالغضب .

(٢) القدرة : وهي المحرك للأعضاء ، أي تحريكا عضليـــا ، وليـــس مجرد قوة واستعداد .

(٣) الحواس : وهي المدرك المتعرف على الأشياء كالجواسيس ، وهي نوعان :

(أ) ظاهرة : وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

(ب) باطنة : وهي الحس المشترك والتخيل والتفكر والتذكر والحفظ .

بعد كل هذا يغوص حجة الإسلام في أعماق الإنسان فيكشف عن تلك الغرائز والدوافع التي تتصارع داخل نفسه فتنعكس آثارها على سلوكه وفكره ، ويقول في تعبير رمزي طريف :

" كل إنسان فيه شوب من هذه الأصول الأربعة : الربانية ، والشيطانية ، والسبعية ، والبهيمية ، وكل ذلك مجموع في القلب ، فكأن المجموع في إهاب الإنسان : كلب وخنزير وشيطان وحكيم "

إنه يعنى بالربانية : قوة الفكر والحكمة ، ويرمز لها بالحكيم .

ويعنى بالبهيمة : قوة الشهوة ، ويرمز لها بالخنزير .

ويعنى بالسبعية : قوة الغضب ، ويرمز لها بالكلب .

ويعنى بالشيطانية : الإيقاع بين قوتي الشهوة والغضب ، ويرمز لها بالشيطان .

وعلى هذا يرى حجة الإسلام : أن كل الصفات المحمودة والمذمومة ترجع إلى هذه الأصول الأربعة .

فعن طاعة خنزير الشهوة يكون الوقاحة والخبث والتبذير والمجانة ، وغير ذلك .

وعن طاعة كلب الغضب ، يكون الفجور والنذالة والصلف ، والاستشاطة، والظلم .

وعن طاعة الشيطان يحصل المكر والخداع والدهاء والعشق وغيرها .

وبخضوع هذه القوة للصفة الربانية وضبطها تكون العفة والقناعة والزهد والورع والتقوى ، وغيرها من الصفات التي تصدر عن ضبط قوة الشهوة .

وأما عن ضبط قوة الغضب فتكون الشجاعة والكرم والصبر والحلم وغيرها .

ويرى حجة الإسلام ، أن الناس مختلفون في مجاهدة هذه القوى ، وهم في ذلك على ثلاث فرق :-

(١) من يغلبه الهوى ، فيملكه ، ويستولي عليه ، وهو حال أكثر الناس .

(٢) من تكون حربه ومجاهدته لنفسه دائمة ، وهى رتبة عليا سوى الأنبياء والأولياء .

(٣) من يغلب هواه ، ويستولي عليه ، وهى رتبة الأنبياء والأولياء .

يتضح لنا من ذلك التدقيق والتفصيل أن الطبيعة الإنسانية ــ فيما يرى حجة الإسلام ــ تشتمل على مجموعة من الغرائز والدوافع الفطرية في أصل الجبلة الإنسانية . مثل الشهوة والغضب على حد تعبيره .

ودافع الشهوة يتنوع إلى : شهوة الطعام ، وتستهدف المحافظة على الحياة، وشهوة الجنس وتستهدف بقاء النسل .

وما دامت الطبيعة الإنسانية بهذه الصورة فإنها مستعدة لاكتساب مزيد من الدوافع حسبما يتعرض له المرء من عوامل التأثير فيه كالبيئة والتربية والخبرات ، وهذا ما يقول به علماء النفس المحدثون عندما يصنفون الغرائز والدوافع إلى أولية وثانوية .

ومن هنا يؤكد الإمام الغزالي على دور التربية وأثرها في الإنسان ، وله في هذا الميدان باع طويل ، وعلى سبيل المثال عقد له بحثا خاصا في **الإحياء** بعنوان " **تربية الصبيان** " وفيه يقول :

" إن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وصورة ، وقابلة لكل ما ينقش فيها ، ومائلة لكل ما يمال بها إليه " أ.هـ.

كما لا يفوت حجة الإسلام أن يؤكد على أثر الوراثة في الإنسان فيقول في كتابه " **ميزان العمل** " ص٦٦ :

" إن الأخلاق تتبع المزاج ، وتسري من الأصل إلى الفرع ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " **تخيروا لنطفكم** " (٩) . وقال : " **إياكم وخضراء الدمن** " (١٠)

الغزالي وتنمية الدوافع النفسية .

إن حجة الإسلام يدرك ـ تماما ـ أهمية الغرائز الطبيعية والدوافع النفسية وأثرهما في تكوين الإنسان ، وتشكيل شخصيته وتنوع أنماطها . وينعكس كل ذلك على السلوك الفردي ، وعلى الوضع الاجتماعي .

ويرى الإمام أن الغرائز والدوافع سلاح ذو حدين :-

فإما أن تكون مصدر خير ومسعادة للإنسان .

وإما أن تكون مصدر شر وخطر عليه .

ولذا يرى ضرورة ضبطها وكبح جماحها ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة لتؤدى وظيفتها المرادة منها بنجاح .

---

(٩) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في السنن عن عائشة / صحيح الجامع ٢٩٢٨ ، و انظر تخريج العراقي للإحياء ج٢ ص٦٦ .

(١٠) رواه الدارقطني في الأفراد وقال : تفرد به الواقدي وهو ضعيف / تخريج العراقي للإحياء ج٢ص٦٦ .

وهو في ذلك يرفض الكبت ، لأن الكبت حال مرضية ترتد على الإنسان فتفسد عليه ذاته وحياته .

وأيضا لأنه لا يمكن اقتلاع الغرائز بالكلية ، لأنها عوامل طبيعية ، ولا يمكن أن تتحقق للإنسان الغاية من وجوده بدونها ، وفي ذلك يقول في "**الإحياء**" :-

" إن شهوة الطعام لو انقطعت لهلك الإنسان ، وإن شهوة الوقاع لو انقطعت لا نقطع النسل ، ولو انعدم الغضب لانعدمت القوة ، ولم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه وهلك "

وعلى ذلك يقرر الإمام الغزالي ضبط الغرائز ــ كما أشرنا ــ وتنميتها التنمية السليمة ، وذلك إنما يكون بالتسامي بالغرائز وتعديلها والاستعلاء بها ، وطرح البدائل المناسبة لتصريف طاقاتها .

لا شك أن هذه الفكرة الدقيقة قد سبق بها حجة الإسلام (ت١١١١م) المدارس النفسية الحديثة بقرون .

وعلى وجه الخصوص مدرسة التحليل النفسي ، وزعيمها **سيجموند فرويد** (١٩٣٩م) .

يقول **الدكتور عبد الكريم العثماني** في كتابه " **الدراسات النفسية عند المسلمين** " : " إن الغزالي لا يعترف بكبت الغرائز والدوافع ، وإنما يقول بإمكان تعديلها وإعلائها ؛ لأنه يعتبر مختلف الدوافع أساسية في الإنسان ، ويعترف بكل ما في المرء من دوافع وميول : ويلح على أن للدوافع مهما نزلت درجتها طبيعة مزدوجة فإنها إما أن تكون وسيلة لارتقاء الإنسان ، أو أن تكون سببا في ضياعه "(١١)

(١١) الدراسات النفسية عند المسلمين ص ١٩٥ .

كما يرى حجة الإسلام : أن عملية تعديل الغرائز والتسامي بها إنما هي منوطة بالإرادة الحازمة ، والتربية السليمة ، وهنا يلمس الغزالي نقطة هامة في مباحث الأخلاق ـ كما أنها وثيقة الصلة بعلم النفس ـ وهي **إصلاح القوى النفسية وتهذيبها :**

ذلك أن هذه العملية مرتبطة في الاعتبار الأول بالغرائز الطبيعية والدوافع النفسية .

والإمام الغزالي ـ في معالجته لهذا الموضوع ـ يعرض لرأي من يدعوهم " المعطلة " ومن غلبت عليهم البطالة ، واستثقلوا المجاهدة في تزكية النفس وتهذيب أخلاقها ، فقالوا : إن الأخلاق لا تقبل التغيير ، واعتمدوا في ذلك على **أمرين :** ـ

الأول : أن الخلق كالخلق ، وكما أن الصورة الظاهرة لا يمكن تغييرها فكذلك الصورة الباطنة لا يمكن تغيرها .

الثاني : أنهم يرون أن ذلك إنما يكون ممكنا بقمع الشهوة والغضب ، وبالتجربة الطويلة اتضح أنه لا يمكن ذلك ، لأن بعضها الطبع والمزاج .

وحجة الإسلام يرفض هذه الدعوى ، ويرى : أن الأخلاق تقبل التغيير فيقول في " **الإحياء** " :ـ

" لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله ﷺ : " **حسنوا أخلاقكم** " ، وكيف ينكر هذا في حق الأدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ ينتقل من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأديب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير في الأخلاق "[١٢]

([١٢]) الإحياء ص ١٤٣٩ ـ ط الشعب بمصر .

وفي تفصيل دقيق يدل على مدى تمكن حجة الإسلام ، وخبرته بطبائع النفوس يرى في (الإحياء) ج١ وفي " الميزان " أيضا : أن الطبائع مختلفة إزاء عملية تغيير الأخلاق ، وليست على درجة واحدة ، فبعضها سريع القبول وبعضها بطيء وسبب ذلك أمران :

الأول : قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتدادها مدة الوجود .

الثاني : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه ، والناس في ذلك على مراتب مختلفة :-

١- الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل ، والجميل والقبيح ، وهذا جاهل وهو أسرع في القبول .

٢- إنسان عرف القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح ، وإنما زين له سوء عمله فانقاد لشهواته ، وهذا جاهل وضال .

٣- إنسان يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة والمستحسنة ، وأنها حق وجميل وهذا جاهل وضال وفاسق ، ولا يرجى صلاحه إلا على الندور .

٤- إنسان يرى الفضيلة في كثرة الشرور ، والمباهاة بها مع تشئته على الرأي الفاسد ، وهذا جاهل وضال وفاسق وشرير ، وهذا أصعب المراتب في القبول .

أما عن طرق تغيير الأخلاق فيرى الإمام أن ذلك إنما يكون بالمجاهدة النفسية والتخلق بالكريم من الأخلاق ، والجميل من الصفات ، وسبيل ذلك ــ عنده ــ **أمران :-**

الأمر الأول : إصلاح القوى النفسية وتهذيبها :

وذلك يكون بتنمية الدوافع النفسية ، وتعديلها ، والاستعلاء بها ــ كما أشرنا إليه سلفا ــ وتحكيم العقل في القوى النفسية بحيث يكون هو الضابط لها ، والغالب عليها ، يقودها إلى الحق ، ويهديها إلى الخير ، **ومجامع هذه القوى ينحصر في:**

قوة الفكر ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب .

وفي ذلك يقول حجة الإسلام في " **الميزان** " :

" ومهما أصلحت القوى الثلاث ، وضبطت على الوجه الذي ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي ، وجعلت القوتان (الشهوة والغضب) منقادتين للثالثة التي هي الفكرية العقلية ، فقد حصلت العدالة ، وبالعدالة تكون صحة النفس ، ومرضها ، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عنه مرض فيه " (١٢)

الأمر الثاني : معرفة عيوب النفس :

إن معرفة عيوب النفس ليست بالأمر الهين على الإنسان ؛ لأن كثيرا من الناس يصعب عليه أن تكون له معايب ، اللهم إلا من رحم الله فهداه إلى طريق الخير ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

وحجة الإسلام قد خبر طبائع النفوس ، ومن هنا يرى أن هذا النوع من المعرفة **سبيله أربعة أمور** :-

أولا : أن يجلس الإنسان إلى شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خبايا الآفات فيحكمه في نفسه ، ويستمع إلى نصحه ، ويتبع إرشاداته في مجاهدته .

ثانيا : أن يستعين بألسنه أعدائه ، ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكر عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه .

ثالثا : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا ، فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فينبهه على عيوبه ليقلع عنها ، ويتخلص منها .

---

(١٢) ميزان العمل ص٣٣ .

رابعا : أن يخالط الناس ، فما يراه من عيوبهم يصرف عنه نفسه ، وما يراه من حسناتهم يندفع إليه ، ويجاهد نفسه عليه .

وبعد كل هذا لا ينسى الإمام الغزالي ، أن يضع بين أيدينا إشارات وضيئة على طريق الخلق الفاضل ، وتهذيب النفس يتخذ منها المرء علامات على إصلاح نفسه وتقويم سلوكه ، وهنا يتخذ من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ هاديا ومرشدا ، يقول رحمه الله : " فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع الصفات علامة على حسن الخلق،ووجود بعضها دون البعض ، يدل على البعض دون البعض ."[١٤]

ومن الآيات الكريمة التي استنار بها الغزالي : قوله تعالى في أول سورة " المؤمنون " : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون .** ﴾ المؤمنون ١-١٠.

ومن ذلك أيضا قوله ﷻ في سورة " الفرقان " : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا**

---

(١٤) الإحياء ص ١٤٦٣ ط الشعب بمصر .

أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما .﴾ الفرقان ٦٣-٧٦ .

ومن السنة النبوية المطهرة حديث أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .(١٥)

وحديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

" من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليكرم ضيفه " (١٦)

وحديث " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا "(١٧)

---

(١٥) رواه البخاري وسلم والترمذي والنسائي وابن وماجه وأحمد عن أنس ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير للألباني رقم ٧٥٨٣ .

(١٦) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أبي شريح وأبي هريرة ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير رقم ٦٥٠١ .

(١٧) رواه أبو داود وابن حبان والحاكم وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير رقم ١٢٣٠ و١٢٣٢ ، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير رقم ١٢٣١ ، والبزار عن أنس ﷺ ـ صحيح الجامع الصغير رقم ١٥٧٨ ، وانظر ١١٧٦و١٥١٥و٣٢٨٧ من صحيح الجامع الصغير .

ومن الملاحظ في هذا الموضوع ــ وغيره ــ أن حجة الإسلام يصدر أحكاما بالخيرية أو الشرية على هذه الأعمال أو تلك ، بما فيها الغرائز والدوافع ، وهذا إنما هو من قبيل مباحث علم الأخلاق الذي يبحث فيما ينبغي أن يكون .

أما علم النفس فهو علم وصفي فلا يتوقع منه مثل تلك الأحكام .

وهنا ينبغي أن تعلم أن مباحث علم النفس إنما هي ــ في الحقيقة ــ مقدمات لمباحث علم الأخلاق ، والوقوف عند حد علم النفس ــ باعتباره علما وصفيا فقط ــ لا يحقق الغرض منه ، وإلا لماذا يكون الاهتمام بهذا الوصف لما هو كائن إن لم يكن الهدف منه تقويمه ومعرفة ما ينبغي أن يكون .

ولهذا درج العلماء الأقدمون على عدم الفصل بين العلمين ، واختلطت عندهم المباحث الأخلاقية بالمباحث النفسية في كثير من الأحيان .

ومن هؤلاء على سبيل المثال ، الفيلسوف الأخلاقي والاجتماعي " **ابن مسكويه** " ، يجعل عنوان كتابه في هذا الميزان تحت اسم " **تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق** " ، فالجملة الأولى من العنوان تتكفل بالجانب الخلقي ، والجملة الثانية تتكفل بالجانب النفسي ؛ ولذلك عقد في هذا الكتاب فصلا مهما بعنوان " **الطب النفسي** " .

الرقيب بين العقل والشرع والضمير .

إذا كان حجة الإسلام قد أفاض في بيان موقفه من الغرائز والدوافع ، وأهمية ضبطها وتوجيهها ، فما موقفه من الرقيب المهيمن على تلك العملية النفسية في باطن الإنسان ؟

هل هو سلطة خارجية عنه مفروضة عليه ممثلة في الشرع الإلهي ؟

أم هو سلطة ذاتية باطنه تتمثل في العقل والضمير ؟

إن شرط تلك الرقابة الباطنة أن تكون سلطة داخلية ذاتية في أعماق الإنسان ، وليست سلطة خارجية مفروضة عليه ، هكذا يرى علماء النفس والأخلاق ، ومن ثم رأوا تلك السلطة ممثلة في الضمير وحده .

وإمامنا الغزالي ــ كما هي عادته ــ يتخذ من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ مصباحا يستضئ به في كل أعماله وأبحاثه ، ومقتضى هذا أن يتخذ من الشرع الإلهي مقياسا وميزانا للخير والشر ، وهذا ما كان منه في كتابه " **المستصفى** "(ج١ ص ٥٥-٥٦) حيث رد على المعتزلة دعواهم بأن الحسن والقبح أمران ذاتيان في الأفعال ، وأن هذا مما يدركه العقل ، وأن العقلاء لو اتفقوا على حسن فعل أو قبحه لكان ذلك حجة مقطوعا بها".

وقد رفض الغزالي هذه الدعوى ، وقرر أن ذلك يرجع إلى الشرع وحده، وليس من طبيعة هذا البحث الإفاضة في هذا الموضوع ، فليرجع إليه من يريد الإفاضة ولكن المهم عندنا : أن حجة الإسلام يقرر الشرع وحده معيارا للخير والشر .

ولكنه في كتبه الأخرى ــ مثل " **إحياء علوم الدين** " و" **ميزان العمل** " و"**الأربعين في أصول الدين**" و"**معارج القدس في معرفة مدارج النفس**" ــ يضيف العقل إلى الشرع ، ويتخذ منهما معا مقياسا ضابطا للخير والشر . فهو يقول في " **الإحياء** " عند تعريفه للخلق : " إن كانت تلك الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجملية المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا " .

وفي " **الميزان** " يرى ذلك كثيرا ، خاصة عندما يتحدث عن الفضائل ، فعن **الشجاعة يقول** : " بل المحمود ما يوافق العقل والشرع "

وفي العفة يقول : " وعماد عفة الجوارح كلها ألا يطلقها في شيء مما يختص بها إلا فيما يسوغه العقل والشرع " .

وفي العدل يقول : " معيار الاعتدال العقل والشرع ."

وإذا كان حجة الإسلام في هذه المؤلفات يعتمد العقل والشرع معا فما العلاقة بينهما في نظره ؟

هنا يؤكد : أن العقل الصريح لا يضاد الشرع الصحيح ، ويوضح العلاقة بينهما في " **معارج القدس** (ص٥٩ / ٦٠) : " بأنها علاقة الأساس بالبناء ، فالعقل أساس والشرع بناء ، ولن يغني أساس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء بغير أساس .

بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول ص٦٠ " الشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان " .

وإذا كان حجة الإسلام يقرر هذا ، فإنه لا يغفل عن تلك القوة الخفية الباطنة والتي يعرفها المحدثون باسم " **الضمير** " .

غير أن حجة الإسلام لم يذكر هذا الاسم صراحة ويخصه ببحث مستقل كما هو الحال عند المحدثين ، يتضح هذا من بحثه في كتاب " **المراقبة والمحاسبة** " من موسوعته " **الإحياء** " حيث يعني بهذه المراقبة حال للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحال أعمالا في الجوارح ، وفي القلب ، ويستدل على ذلك بحديث **وابصة بن معبد** حيث قال : أتيت رسول الله ﷺ فقال ﷺ : جئت تسأل عن البر والإثم ؟ فقلت : نعم . فقال: **البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك** " .(١٨)

ويرى حجة الإسلام : أن عمل تلك القوة الخفية لا يقتصر في رقابتها على العمل بعد الفراغ منه ، بل إن نشاطها يمتد إلى ما قبل الفعل وفي أثنائه كذلك .

وقد أوضح أن تلك القوة " الضمير " إنما تنمو في الإنسان نموها الصحيح بتأثيرها من العمل بالشرع الإلهي ، والالتزام بالعقل السليم ، وهي بهذا تصبح دليلا يسترشد به على الإحساس بخيرية العمل أو شريته.

وفي ختام هذا البحث المتواضع نستطيع القول ــ في ثقة واطمئنان ــ بأن حجة الإسلام قد قعد لعلم نفس إسلامي أصيل ، يستمد أصوله من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ ، وذلك وفق منهجه الذي ارتضاه لنفسه من التأمل الذاتي والملاحظة الخارجية ، وحسبما أتاحت له ظروف عصره .

---

(١٨)حديث حسن رواه أحمد والدارمي / انظر الحديث السابع والعشرين من جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب ، وانظر الحديث رقم ٢٨٨١ من صحيح الجامع الصغير .

ويطيب لي هنا أن أكرر ما استقر لدي في كتابي " **مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي** " : من أن الطابع الفكري للإمام الغزالي هو الطابع الإسلامي ، وليس ذلك براجع إلى مجرد إكثاره من النصوص الدينية فحسب ، كما يرى بعض الباحثين (١٩) ، بل يرجع أولا وأساسا إلى الأفكار والنظريات الإسلامية التي جاء بها والمنطلق الذي صدر عنه ، وهو إن تأثر بغيره من الفلاسفة والمفكرين فهو ليس بدعا في تاريخ الفكر الإنساني ، فتلك حتمية التلاحم الفكري (٢٠) ، وليس ثمة فيلسوف ينشئ فلسفته من عدم محض ، وحسب الغزالي أنه صهر كل ما عرف في بوتقة فكره ، فأخرج منه مذهبه الخاص به ، وفلسفته المميزة بطابعها وخصائصها ، مما يؤكد ما أوتيه من ملكة البحث والتجريد ، والقدرة على الإبداع والابتكار ، فعاش ومات ــ وسيظل رغم القرون ــ حجة الإسلام وإماما للمسلمين " (٢١)

رحم الله أبا حامد ، ورضي عنه وأرضاه .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

---

(١٩) من هؤلاء الدكتور زكي مبارك في كتابه " الأخلاق عند الغزالي " (ص٧٩) ، وفيه يقول : "يرى غير واحد من علماء هذا العصر : أن الأخلاق عند الغزالي هي عين الأخلاق الإسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من إكثاره في مؤلفاته من الأحاديث والآيات " أ.هـ

(٢٠) قد عالجنا هذا الموضوع في بحث خاص بعنوان : " نحو منهج متكامل في البحث الفلسفي" ، نشر في " حولية كلية الشريعة ، جامعة قطر " العدد الثالث ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٢١) مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ــ د. أحمد عبد الحميد الشاعر ص ٣٥٦ .

مصادر النصوص التي وردت في البحث .

(١) إحياء علوم الدين ــ الإمام الغزالي .
(٢) الأخلاق عند الغزالي ــ د. زكى مبارك
(٣) الأربعين في أصول الدين ــ الإمام الغزالي .
(٤) الإنسان بين المادية والإسلام ــ محمد قطب .
(٥) الإنسان وعلم النفس ــ د. عبد الستار إبراهيم .
(٦) الدراسات النفسية عند المسلمين ــ د. عبد الكريم العثماني .
(٧) القرآن وعلم النفس ــ د. محمد عثمان نجاتي .
(٨) المستصفى ــ الإمام الغزالي .
(٩) معارج القدس في معرفة مدارج النفس ــ الإمام الغزالي .
(١٠) مناهج البحث الخلقي في الفكر الإسلامي ــ د. أحمد عبد الحميد الشاعر .
(١١) المنقذ من الضلال ــ الإمام الغزالي .
(١٢) ميزان العمل ــ الإمام الغزالي .